

الأبعاد الإنسانية في ممارسات الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962 "معاملة فئة اليهود أنموذجاً"

الباحث: محمد ي محمد

طالبة دكتوراه،

قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف المسيلة؛ الجزائر

ملخص المقال:

تروم هذه الدراسة التاريخية المتواضعة، محاولة بحثية بسيطة لتسليط الضوء التاريخي حول واحدة من أهم القضايا والمسائل الفكرية التي اجتهدت الثورة التحريرية الجزائرية في تكريسها خلال المرحلة الثورية الجزائرية، الممتدة من الفاتح نوفمبر 1954 وإلى غاية استقلال البلاد في ال05 جويلية 1962، ويتعلق الأمر بالأسس والمبادئ المعاملاتية التي انتهجتها الثورة الجزائرية في معاملتها للأقليات الدينية غير المسلمة القاطنة بالجزائر بصفة عامة، وتخصيص الأقلية الدينية اليهودية كأنموذج لهذه الدراسة وذلك من خلال تتبع أهم المواقف التي أظهرتها هذه الأقلية من الاحتلال الفرنسي أولاً، ومن القضية الجزائرية وثورتها التحريرية خاصة، وكل ذلك في ظل المحاولات الاستعمارية الهادفة لفصل يهود الجزائر عن الوطن التاريخي الحاضن لهم.

الكلمات المفتاحية:

الأقلية اليهودية، الثورة الجزائرية، الاستعمار الفرنسي، الأقليات الدينية، الأبعاد الانسانية.

مقدمة:

منذ الأيام الأولى لاندلاع الثورة التحريرية الجزائرية في الفاتح نوفمبر 1954، وهذه الثورة تسعى من خلال كفاحها ضد الاستعمار الفرنسي المعتدي على البلاد في ال05 جويلية 1830، إلى تحقيق العدالة

الاجتماعية والمساواة الحياتية لجميع الجزائريين والجزائريات من دون استثناء، وذلك بغض النظر عن الانتماءات العرقية أو الدينية لهؤلاء الجزائريين الذين اجتمعوا تحت مظلة الوطن الجزائري الجامع. وبالاستناد إلى هذه المكانة الإنسانية التي حظيت بها الأقليات عامة والأقلية الدينية في المجتمع الجزائري خاصة؛ طيلة الفترات التاريخية السابقة وبخاصة الفترة العثمانية منها، فإن الأقلية اليهودية في المجتمع الجزائري تعتبر واحدة من أهم هذه الأقليات الدينية غير المسلمة في هذا المجتمع، وذلك منذ الفترات التاريخية القديمة وإلى غاية ابتلاء الجزائر بالواقعة الاستعمارية الاستيطانية الفرنسية، التي أملت بالجزائر وبشعبها في الـ 05 جويلية 1830، وبناء على ذلك فقد حاولنا من خلال هذه الدراسة التاريخية المتواضعة، تسليط الضوء التاريخي على موقف اليهود من الاحتلال الفرنسي للجزائر، وما هي المكانة التي حظي بها هؤلاء اليهود بالجزائر طيلة مراحل استقرارهم فيها، وذلك تقيداً بالعناصر الآتي ذكرها:

1- تاريخ الأقلية اليهودية بالجزائر وموقفها من الاحتلال الفرنسي للبلاد؟

2- اندلاع الثورة التحريرية وموقف الأقلية اليهودية؟

3- الثورة التحريرية الجزائرية ومكانة الأقلية اليهودية في مشروعها التحرري؟

1- تاريخ الأقلية اليهودية بالجزائر وموقفها من الاحتلال الفرنسي:

يكاد يجمع العديد من الدارسين والباحثين في أن الجذور الأولى للتواجد اليهودي في منطقة شمال إفريقيا وفي الجزائر تحديداً، أن بدايات هذا الحضور اليهودي في هذه البلاد إنما يعود إلى المرحلة الفينيقية⁽¹⁾، في حين رأى فريق آخر أن هذا التواجد اليهودي أسبق من هذا التاريخ⁽²⁾، في حين وقفنا على شبه إجماع من قبل هذه الكتابات التاريخية في كون الأقلية اليهودية قد عاشت فترات زمنية واقعتها الازدهار والرخاء الاقتصادي والاجتماعي إبان الفترة الإسلامية على هذه الأرض، وبخاصة خلال المراحل الأولى من وصول المسلمين إلى بلاد الشمال الإفريقي⁽³⁾، وهو ما ينسبه الدارسون إلى روح التسامح والعفو التي تميزت بها معاملة المسلمين لهؤلاء اليهود والمستنبطة أحكامها من الشريعة الإسلامية، على اعتبار أن اليهود أحد الأقليات الدينية، التي يجب على المسلمين إيلائها بجملة من الحقوق والواجبات، استناداً لما ورد في أحكام الشريعة الإسلامية في ما تعلق بأحكام

عقد أهل الذمة، وهو العقد الذي يمنح بموجبه لجميع الأفراد من أهل الكتاب (غير المسلمين من اليهود والمسيحيين)، حقهم من الحماية على الأرواح والممتلكات في مقابل جزء من المال يسمى "الجزية"⁽⁴⁾. هذه السياسة المنتهجة من قبل الدولة الإسلامية في هذه الأقطار من بلدان شمال إفريقيا، كانت السبب المباشر في الاستقرار السياسي وروح التسامح الذي خص به اليهود خلال هذه الفترة، كما ساهم وإلى حد كبير في توافد أعداد غفيرة من هؤلاء اليهود نحو بلاد المغرب الإسلامي، حتى أضحت البلاد الإسلامية بهذه المناطق تضم أكبر جالية لليهود في شتى أنحاء العالم، هؤلاء الذين اندمج أغلبهم وبسرعة كبيرة في المجتمعات الإسلامية بهذه البلدان وبين أفرادها، ففي المغرب الأوسط⁽⁵⁾ على سبيل المثال؛ نجد أن هذه الأقلية اليهودية قد اجتهدت في امتحان الكثير من المهن والتجارات المرحة في هذه البلاد، لاسيما في ظل إثارتها للمدن والتجمعات الآهلة بالسكان مناطق لاستقرارها وممارسة تجارتها، ومن المدن الجزائرية التي اشتهرت بأعداد كبيرة من هؤلاء اليهود نجد: تلمسان، وهران، العاصمة، قسنطينة⁽⁶⁾، بوسعادة⁽⁷⁾، المدية، البليدة، معسكر... الخ، والعديد من المناطق والمدن والتي تباين فيها الحضور اليهودي بين قلة وكثرة، تماشياً مع المصالح التجارية والاقتصادية التي تميز بها السكان اليهود دون غيرهم من باقي سكان البلاد.⁽⁸⁾

وفي ظل هذه الحظوة والأهمية التي مُكنت منها الأقلية اليهودية في المجتمع الجزائري المسلم، طيلة المراحل التاريخية وبخاصة الفترة العثمانية منها على الخصوص، نجد أن المواقف اليهودية إزاء السكان الأصليين في هذه البلاد، لم تكن بمستوى التطلعات والآمال التي وضعتها البلاد الجزائرية وأهاليها في هؤلاء اليهود، فالأقلية اليهودية كانت حسب الحقائق التاريخية السبب المباشر في الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830⁽⁹⁾، كما كان اليهود في الجزائر أول المهنتين والمرحبين بهذا السيد الجديد على البلاد، إذ خضع هؤلاء اليهود طواعية لهذا المحتل الفرنسي دون مقاومة أو استنكار ضد هذا الاعتداء، بل إن الكثير من هؤلاء اليهود من رحب وبشدة بالغزاة الفرنسيين بعد سيطرتهم على البلاد ودخول عاصمتها، وذلك في مشهد مقزز ومثير للسخط وصور النذالة الإنسانية التي ميزت هؤلاء اليهود عبر تاريخهم، وذلك نقلاً عن شهود العيان من الجنود والعسكريين الفرنسيين، الذين وصفوا مشاهد سيطرتهم على البلاد ومواقف اليهود منها؛ في القول: «لقد كانت أصوات هذا الشعب القدر، تتعالى بهتافات مدوية "فيفا لا فرانسيس... يحيى الفرنسيون"...، فأظهر بذلك أنه شعب غير جدير

بالحرية...»⁽¹⁰⁾ ، في حين صور لنا مشهد آخر وصف حال هؤلاء اليهود في الأيام الأولى من نجاح الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر؛ في قوله: «...إنه ومع مجرد الإمساك بأولئك اليهود، تراهم يرتعشون كأوراق الخريف على الغصن، ثم يقبل أرجلنا وملابسنا ويطلب الصفح، لأنه يظن أنه هالك على أيدينا».⁽¹¹⁾

وبعد أن تمكن الفرنسيون من بسط نفوذهم على البلاد، والقضاء على كل أشكال المقاومة المعلنة من قبل الأهالي الجزائريين فيها، وبعد أن أطمأن اليهود على حياتهم وأمنهم لدى السلطات العسكرية الفرنسية، أخذ هؤلاء اليهود وبالتعاون مع السلطات العسكرية الفرنسية يشنون العمليات المختلفة للسلب والنهب ضد الممتلكات الخاصة بالجزائريين خاصة كانت أو عامة، حتى أن كثيرا من هؤلاء اليهود قد بادر إلى الانتقام من المسلمين الجزائريين، وذلك بعد أن تنكر هؤلاء اليهود لماضيهم وتاريخهم على هذه الأرض الجزائرية الطيب أهلها، ومما زاد من كره وحقد اليهود على الوطنيين الجزائريين خلال هذه الفترة، هي استغلال هؤلاء اليهود الجزائريين للقوانين الاستثنائية الفرنسية الهادفة إلى استقطاب هؤلاء اليهود وفصلهم عن المجتمع الأصلي والحاضن لهم طيلة الفترات التاريخية السابقة، ولا أدل على هذه القوانين من "قانون كريميو 1870" الذي فسح المجال أمام تسلط اليهود على الساكنة الأصليين بهذه البلاد، لاسيما بعد أن منحهم هذا الأخير الحق في التجنس بالجنسية الفرنسية، لتكون هذه الجنسية بالنسبة هؤلاء اليهود ذريعة ووسيلة للتطاول والتسلط على المسلمين الجزائريين إلى درجة بلغت فيها الأوضاع حداً لا يطاق من التسلط من قبل هؤلاء اليهود.

ومن الصور العديدة لهذا التسلط اليهودي على الساكنة الجزائريين، ما تواترت له لنا معظم النصوص والأدبيات التاريخية، وفي هذا السياق نص معبر عن هذا التسلط من قبل "مولود بن باديس" كتبه هذا الأخير في صحيفة "صدى الأهلي" الذي وضع من خلاله الكاتب درجة الاستياء التي بلغها الأهالي الجزائريون، من جراء التسلط والظلم الممارس ضدهم من قبل هؤلاء اليهود، في نص ذكر فيه: «إن اليهودي عندما يسأل يهوديا آخر، كيف حالك؟ يجيب هذا: "على أحسن ما يرام. محمد يمسح أحتيتي، وفاطمة تغسل أرض منزلي»⁽¹²⁾، وقد تواصل اليهود في أساليبهم العنصرية المطبقة ضد الأهالي الجزائريين خلال المرحلة الاستعمارية

1830-1954، والتي كانت تقوم على التهميش والإقصاء تجاه السكان الأصليين من الجزائريين، الأمر الذي كان سببا مباشرا في بروز صور وأشكال الحقد والكرهية تجاههم.

2- اندلاع الثورة التحريرية وموقف الأقلية اليهودية:

منذ أن دخل الفرنسيون إلى الأرض الجزائرية، والقاعدة الأساسية التي سار على خطاها اليهود في معاملتهم للأهالي الجزائريين، تقوم على ثلاثة ركائز أساسية في هذه المعادلة وهي: "الابتزاز"، "السلب"، "الوعيد"، وهي مجمل الممارسات التي طبعت جميع المعاملات اليهودية في علاقتهم مع الأهالي الجزائريين طيلة المرحلة الاستعمارية 1830-1962، ففي هذه الفترة أظهرت الأقلية اليهودية عداءً كبيرا للسكان الأصليين في هذه البلاد، وذلك بعد أن عاث هؤلاء اليهود في البلاد فساداً وتنكيلاً وسلباً ونهباً لأموال الجزائريين وممتلكاتهم، فاليهود كانوا عيون الفرنسيين وجواسيسهم على أهل هذه البلاد، كما كانوا الواسطة في جميع عمليات السطو والنهب التي تعرضت لها ممتلكات الجزائريين من قبل العسكريين الفرنسيين، وبخاصة في ظل إدراك اليهود ومعرفتهم بدقائق الأمور المتعلقة بالجزائريين وتفصيل أمورهم الدينية والدينيوية، بل إن كثيرا من عمليات السطو المنظمة من قبل العسكريين الفرنسيين، لتعود غنائمها من أملاك الجزائريين إلى التجار اليهود في صورة مشتريات رخيصة يشتريها هؤلاء اليهود من لدن الجنود الفرنسيين، على أن يعيد هؤلاء اليهود بيعها بأسعار خيالية بعد أن تهدأ الأوضاع.⁽¹³⁾

وهنا لا بد من الإشارة؛ إلى أن الأوضاع السائدة بالجزائر طيلة المرحلة الاستعمارية ظلت في صالح الأقلية اليهودية في شتى مجالات الحياة المختلفة، أين ميزها التنكر السافر لهذه الأقلية اليهودية تجاه كل التاريخ المشرق والصفحات البيضاء التي عاشها هؤلاء في هذه البلاد وبين أهاليها، فمنذ وصول اليهود إلى هذه البلاد في المراحل التاريخية الإسلامية، وهم يحظون فيها بالتقدير والاحترام الذي منحهم إياه الشريعة الإسلامية كواحدة من الأقليات الدينية وأهل الذمة في المجتمع الجزائري، غير أن هؤلاء اليهود آثروا من مبدأ التنكر لسماحة الجزائريين وكرم أهاليها، أين أظهر هؤلاء اليهود من صور الخيانة والولاء للغزاة الفرنسيين الذين اغتصبوا الأرض والممتلكات الجزائرية الشيء الكثير، وذلك إلى الحين الذي دقت فيه ساعة الحقيقة، من خلال الإعلان التاريخي عن الاندلاع الرسمي لثورة الفاتح نوفمبر 1954، وهي التي قيضت أحلام الفرنسيين واليهود في المستعمرة الهادئة الجزائرية.⁽¹⁴⁾

وهنا لا بد من أن تكون إشارتنا، إلى أن إعلان الكفاح المسلح من قبل الثورة الجزائرية، لم تكن استهدافاً أو تهديداً للأقليات الدينية أو العرقية في الجزائر، والتي نعتبر أن الأقلية اليهودية والمسيحية من أهم هذه الأقليات الدينية والعرقية بهذه البلاد، وبخاصة في ظل التأيد العلني من لدن هذه الأقليات للاحتلال الفرنسي وجرائمه المقترفة في حق الإنسانية الجزائرية طيلة القرن وربع القرن، بالرغم من استناد هؤلاء اليهود إلى الأطروحة المبنية على أساس المراوغة والتزييف التاريخي للحقائق، من خلال محاولة اليهود الجزائريين التمكين للتزييف التاريخي، حول مكانتهم في كنف الدولة الجزائرية خلال المرحلة العثمانية، وهم الذين أدعوا أنهم قد عايشوا مراحل تاريخية مظلمة في هذه البلاد، أساسها الظلم والتسلط المسلط عليهم من قبل الجزائريين، وهو ما حاول التأكيد عليه الباحث الفرنسي ذو الأصول اليهودية "لوسيان صباح Lucien Sabah" الذي كتب في كتابه أنه قد: «كان على اليهود الاختيار بين فرنسا التي ضمنت لهم الحياة والكرامة خاصة، والجهاد الإسلامي الذي كان يهددهم. في الحقيقة كان عليهم الاختيار بين الحياة والموت، بعيداً عن مصالحهم المادية المباشرة...»⁽¹⁵⁾.

وفي ظل كل هذه التهم الموجهة للثورة التحريرية الجزائرية من قبل هؤلاء الأقلية اليهودية، فقد عملت الثورة على تخصيص الأقلية اليهودية المستقرة في الجزائر بسماحتها الإنسانية التي أقرتها الشريعة الإسلامية في معاملة المسلمين لأهل الكتاب من المشركين، ولا أدل على هذه الحقائق الإنسانية في التعامل مع يهود الجزائر من لدن قادة "جبهة.ت.و"، مما تضمن بيان الفاتح نوفمبر 1954 من أطر وقوانين من أجل التعامل مع هذه الأقليات الدينية، والتي ورد بشأنها في نص البيان أن الثورة التحريرية الجزائرية لا تستهدف بكفاحها التحرري المعتقدات الدينية ولا أتباعها، بل إن الثورة الجزائرية هي ثورة تحريرية تسعى إلى القضاء على النظام الاستعماري دون أدنى اعتبار آخر، في نص جاء فيه: «إن حركتنا موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى»⁽¹⁶⁾.

كما أضاف البيان، موضحاً السياسة الإنسانية المنتهجة تجاه جميع الأقليات الدينية والعرقية في الجزائر، والتي ترمي إلى الإغلاء من المكانة الإنسانية للإنسان مهما كان جنسه أو عقيدته خلال المسيرة الثورية التحريرية الجزائرية،

وهي الخطوط العريضة التي وضحت معالمها في الأسس والمناهج الرئيسية، في معاملة الثورة الجزائرية لجميع الأقليات الدينية وبخاصة الأقلية اليهودية منها؛ في قوله: «إن الهدف هو احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني». (17)

وتلك هي الخطوة الإنسانية التي تأكد من خلالها لكافة اليهود والأحرار والديمقراطيين في العالم، بأن الثورة التحريرية الجزائرية مشروع إنساني متكامل لا يستهدف بأعماله التحريرية الأقليات الدينية أو العرقية، وأبلغ دليل على ذلك هو المعاملة التي خصت بها الأقلية اليهودية في ظل المشروع الثوري رغم خيانتها المتكررة للقضية الجزائرية وإلى أهالي البلاد من عامة الجزائريين، فرغم أن هذه الثورة قد صنفت الأقلية اليهودية كجزء أساسي من التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري طيلة مراحلها التاريخية، كما جعلت من هؤلاء اليهود فئة منفصلة ومميزة عن باقي الفرنسيين المتوطينين، وبالرغم من قبول اليهود التجنس بالجنسية الفرنسية استناداً لما أقره "قانون كريميو" سنة 1870، هذا الأخير الذي اعتبره الكثير من الدارسين خطوة استباقية من لدن السلطات الاستعمارية الفرنسية لفصل هؤلاء اليهود عن السكان الأصليين من الجزائريين في الجزائر، وذلك بالرغم من أن الامتدادات التاريخية تفرض على هؤلاء اليهود أن يكونوا جزائريين قبل أن يكونوا فرنسيين. (18)

أما في ما تعلق بردود الأفعال الصادرة عن هؤلاء اليهود، عقب الاندلاع المفاجئ للثورة التحريرية الجزائرية، وبداية الأعمال الجهادية والكفاحية المسلحة ضد المصالح الاستعمارية الإستراتيجية، فإننا نجد أن هذه البداية الثورية قد قوبلت بالحدر والترقب مع التزام الصمت من قبل هذه الأقلية اليهودية، سيما في ظل وجود أصوات يهودية مدركة لحقيقة الصراع، لأجل مناداة هؤلاء اليهود من تداعيات التخندق اليهودي لطرف على حساب الآخر في هذه المرحلة الحساسة من عمر الحرب الناشبة بين الطرفين، وهم الذين اعتبروا أن اليهود في الجزائر هم فئة منقسمة إلى شطرين أساسيين، في القول: «إن يهود الجزائر هم أنصاف جزائريين وأنصاف فرنسيين، ولدوا في بيئة وعادات وتقاليد بربرية عربية إسلامية، وتجنسوا بالجنسية الفرنسية» (19)، وهو نفس الطرح التوفيقي الذي ذهب إليه الباحث اليهودي في الشؤون الاجتماعية "جاك لازار" والأمين العام

لـ"لجنة اليهود الجزائريين للدراسات الاجتماعية"⁽²⁰⁾، الذي نادى هو الآخر بعدم الانحياز أو التخندق في هذه المرحلة من النزاع القائم، مما قد تكون عواقبه وخيمة على مستقبل الأقلية اليهودية بالجزائر. وفي الوقت الذي وقفنا فيه على عديد الدعوات التي وجهها الكثير من المثقفين اليهود، إلى اليهود الجزائريين من أجل دعوتهم إلى التزام الصمت وعدم التخندق لطرف على حساب الآخر في هذه المعركة الحاسمة بين الفرنسيين والجزائريين، فقد طفت إلى السطح فئات أخرى من هذه الأقلية اليهودية المثقفة كذلك، لتعلن بدورها كسر حاجز الصمت الذي فرضه أنصار الحل الحيادي، من خلال الدعوة الصريحة التي أعلنها هؤلاء اليهود إلى مساندة الثورة التحريرية ومؤازرتها، وهي الفئة التي عمدت إلى توظيف التاريخ لاستقطاب اليهود وتذكيرهم بالمواقف البطولية والإنسانية الذي خصت بها الثورة التحريرية كافة الأقليات الدينية المستوطنة بالجزائر وبخاصة اليهودية منها، وفي هذا الخصوص فقد أصدر اتحاد اليهود المثقفين بياناً، يوضح فيه علل هذا التوجه ومبرراته؛ ومما جاء في هذا البيان نذكر: «ما يزال الوقت أمامنا لنعود إلى المجموعة الجزائرية، فإن التعلق بصفة المواطن الفرنسي المفتعلة هو خديعة، في الوقت الذي تتكون فيه الأمة الجزائرية الحديثة والفتية والقوية، ونعلم أيضاً أن مسلمين ويهود قد كشفوا في كفاحهم المشترك عن أخوة في العرق، وأنهم يحسون بتعلق عميق ونهائي بالوطن الجزائري، وإنما إذ نطرح تعلقنا بالأمة الجزائرية نعمل على إبطال الحجة التي يستخدمها المستعمرون...»⁽²¹⁾.

وبين الصمت والتأييد، نجد أن مناهضة الثورة التحريرية من قبل الأقلية اليهودية الجزائرية كذلك، يعد أحد أبرز المواقف التي أعلن عنها المثقفون اليهود تجاه القضية الجزائرية عامة والثورة التحريرية بصفة خاصة، ومن المواقف السلبية والداعمة للوجود الاستعماري الفرنسي على الأرض الجزائرية، وهو الموقف الذي يكاد يكون غالباً على عامة الأقلية اليهودية الجزائرية، بالاستناد إلى العديد من التصريحات التي أعلنها الكثير من المتعصبين اليهود، ومن أولئك اليهود المدافعين عن الوجود الفرنسي الأزلي على هذه الأرض الجزائرية، ومن نماذج هذه التصريحات نذكر ما جاء على لسان اليهودي "أندري ناربوني andrenarboni"، هذا الذي أكد المساندة الفعلية لجميع اليهود الجزائريين، للتوجهات والأطروحات الاستعمارية الفرنسية بالجزائر وهي التي تقوم على الفصل بين الكيانين

الفرنسي والجزائري، في قوله: «نحن فرنسيين ونريد أن نبقي فرنسيين... تريدون منا خيانة وطن نحن مواطنون فيه (يعني فرنسا)، من أجل وطن غير موجود الآن، نحن سنبقى أوفياء لفرنسا، أوفياء لكل قيم العدالة والديمقراطية»⁽²²⁾، ومن بين العديد من المواقف المناهضة للقضية الجزائرية وثورتها التحريرية أيضاً، نجد العديد من المواقف التي ميزت بعض من أعضاء هذه الأقلية في البدايات الأولى من عمر الثورة التحريرية، ومثال ذلك تصريح لأحد الطلبة من اليهود الجزائريين حول مستقبل الفئة اليهودية في الجزائر المستقبلية، والذي رد قائلاً: «نحن فرنسيين، فرنسيين، فرنسيين... هل فهمتم؟ بالنسبة إلينا ليس هناك مشكل، إذا ذهب فرنسا، فسندهب معها»⁽²³⁾.

وبناء على ما سبق ذكره، فإننا نستطيع القول أن موقف الأقلية اليهودية من حدث اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية، لم يكن بالموقف الموحد ولا الثابت تجاهها، إذ وقفنا على تباين صريح في مواقف هؤلاء اليهود من القضية الجزائرية بصفة عامة والثورة التحريرية بصفة خاصة، وذلك بين مناهض ومساند ومحايدين لهذه الثورة التحريرية ولمشروعها التحرري الهادف إلى تحقيق الاستقلال، إذ وبالرغم من الوعود والتطمينات المقدمة من الثورة التحريرية لصالح هؤلاء اليهود، بضمنان مستقبل أخوي ومتسامح في كنف الدولة الجزائرية المستقبلية، والتي علم اليهود عبر مراحلهم التاريخية بهذه البلاد سماحة أهلها وحقيقة أمن وسلامة هؤلاء اليهود بين سكان هذه البلاد طيلة المراحل والفترات التاريخية السابقة.⁽²⁴⁾

3- الثورة التحريرية الجزائرية ومكانة الأقلية اليهودية في مشروعها التحرري:

منذ اللحظات الأولى للإعلان عن اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية في الفاتح نوفمبر 1954، وقادة الثورة التحريرية من أعضاء "جبهة ت.و" يبذلون جهوداً جبارة من أجل استقطاب عموم الأقليات الدينية والعرقية إلى كفة النضال التحرري الجزائري المعلن ضد الواقع الاستعماري الفرنسي، وفي ذلك خطوة إيجابية من أجل حصول هذه الثورة الجزائرية على الشرعية الدولية والقانونية، وتحصيل التعاطف من لدن جميع الأحرار والديمقراطيين من هذا العالم، فكان أن استهدفت هذه الثورة بوسائلها الإعلامية والدعائية الثورية المختلفة، بجملة من النداءات الإنسانية في اتجاه العديد من الأطراف والفئات المستهدفة من الحراك التحرري الذي تعيش أطواره البلاد الجزائرية

خلال الحقبة الاستعمارية 1830-1962، فكان أن توجهت الثورة التحريرية في المراحل الأولى من بداية كفاحها، إلى جميع الأطياف والأقليات الدينية والعرقية عبر البيان التأسيسي للثورة التحريرية الجزائرية ممثلاً في "بيان الفاتح نوفمبر 1954"، وهو الذي وضحت من خلاله السياسة الثورية المنتهجة تجاه جميع الأقليات الدينية والعرقية.

وفي ظل المناورات الاستعمارية الهادفة إلى استمالة الأقلية اليهودية عن طريق المزايا والامتيازات الوهمية، فإننا نجد بالمقابل من ذلك أن قادة "جبهة.ت.و" لم يأسوا من النداءات المتكررة لهؤلاء اليهود المترددين، في محاولة من قادة هذه الثورة لإقناع هذه الأقلية اليهودية بقبول المواطنة الجزائرية، سيما في ظل النداءات الموجهة من طرف "جبهة.ت.و" إلى يهود الجزائر للبقاء ضمن المجتمع الجزائري المسلم، والانضمام في كنف الجزائريين من أجل البناء المشترك للدولة الجزائرية المستقبلية والمتسامحة مع الأقليات الدينية، والتي يكون فيها الجزائريون واليهود جنباً إلى جنب يعيشون في ظل الحرية والمساواة التي ستحققها الدولة الجزائرية، كما تقدمت "جبهة.ت.و" إلى هؤلاء اليهود بالعديد من المشاريع الإصلاحية من أجل بعث العلاقة التاريخية، التي تربط بين هذين الطرفين قبل وصول الفرنسيين إلى البلاد ودخولهم أرض الجزائر بالقوة العسكرية سنة 1830⁽²⁵⁾، ولا أدل على هذه الحقائق مما ورد في بيان الثورة الجزائرية في ما تعلق بحقوق الأقلية اليهودية والأوربية على حد سواء؛ في نص جاء فيه: «إن الكفاح الجزائري يقوم على الاحترام الكامل لجميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني».⁽²⁶⁾

وفي ذات السياق؛ والمتعلق بجهود استقطاب الأقلية اليهودية إلى جانب الصف الجزائري والكفاح التحرري المعلن من قبل الثورة التحريرية، فقد اجتهدت "جبهة.ت.و" في العمل من أجل تكتيف من مساعيها لأجل احتواء هذه الأقلية وضمان عدم وقوعها فريسة بين أنياب ومخالب الدعاية القوية للإدارة الاستعمارية، وذلك من خلال وضع الأقلية اليهودية في موضع للمقارنة بين المعاملة التي خص بها هؤلاء اليهود في ظل الدولة الجزائرية، والمعاملة التي عومل بها هؤلاء اليهود من قبل السلطات الفرنسية طيلة المراحل والفترات التاريخية السابقة، وهو الواقع الذي شرحتة "جبهة.ت.و" بالتفصيل موضحة لهؤلاء اليهود مدى التسامح والإنسانية، اللذين حظي بهما يهود الجزائر في ظل الدولة الجزائرية المسلمة، كما لم تتوان "جبهة.ت.و" في الكشف عن الجرائم اللاإنسانية التي راح اليهود ضحية لها من قبل المتعصبين المسيحيين في أوروبا عامة وفي فرنسا خاصة، ولا أدل على ظلامية هذه المراحل، من

الفترات التي حكم فيها كل من: بوجاد، بوتان، فيشي... الخ، وهي المراحل الأكثر عنصرية تجاه الأقلية اليهودية من المسيحيين على الأراضي الفرنسية والأوربية.⁽²⁷⁾

وفي ظل هذه الوقائع التاريخية المتشابكة، فقد آثرت الثورة التحريرية الجزائرية دعوة هؤلاء اليهود إلى التريث وتحكيم العقل والحكمة قبل إصدار أحكامهم النهائية، في ما تعلق بالمواقف النهائية إزاء الثورة التحريرية الجزائرية، لاسيما في ظل التحامل المطبق من لدن المنظمات الفرنسية العنصرية، التي ما فتئت تزرع مشاعر الحقد والكراهية للأقلية اليهودية إزاء السكان المسلمين من الجزائريين، وهي المنظمات التي برزت بشكل كبير في ما بعد في صور عديدة من الجرائم اللاإنسانية المرتكبة ضد الأقلية اليهودية على التراب الفرنسي، ولا أدل على هذه المنظمات من: "الحركة البوجادية" و"لجنة الثامن نوفمبر".⁽²⁸⁾

وفي ظل الصراع القائم بين "جبهة.ت.و" والأجهزة الدعائية الاستعمارية الفرنسية، من أجل احتواء واستقطاب الأقلية اليهودية بوسائل وطرق مختلفة، بعد أن قررت هذه الأخيرة ممارسة الترقب والانتظار جراء ما يمكن أن يسفر عنه الصراع القائم بين الطرفين المتنازعين، وهو الموقف المبهم الذي جعل رئيس "ح.م.ج.ج" السيد "بن يوسف بن خدة" ينتفض غاضبا بشأن المراوغة التي يتميز بها هؤلاء اليهود في الإعلان عن موقف ثابت وموحد تجاه الثورة الجزائرية، في القول: «... ما كانش موقف رسمي... بقوا ينتظرون، ولم نعرف لهم موقفا واضحا وحاسما تجاه الثورة». ⁽²⁹⁾

وفي مقابل ذلك؛ فقد أعلن كثير من المناضلين الجزائريين عدم اغلاق باب الأمل في انضمام هؤلاء اليهود إلى الثورة التحريرية الجزائرية، وهو السبب الذي جعل المناضل "فرحات عباس" يتوجه إلى هؤلاء اليهود من على منبر هيئة الأمم المتحدة، داعياً إياهم الوقوف إلى صف القضية الجزائرية في مقابل أن يمنح هؤلاء اليهود أفضليات من الدولة الجزائرية، والتي ذكر "فرحات عباس" على رأس هذه المطالب قرار مساعدتهم في الهجرة إلى أماكن يختارونها بأنفسهم، ومما جاء في خطابه نذكر: «ستحاول الجزائر مساعدة اليهود الجزائريين، في الهجرة إلى أرض الميعاد دون شروط أو عراقيل»⁽³⁰⁾، وفي نفس السياق أيضاً، فقد واصل "فرحات عباس" باعتباره السياسي المعتدل على رأس "ح.م.ج.ج" في حملة نداءاته التوفيقية الهادفة إلى استقطاب الأقلية اليهودية لصالح القضية الجزائرية، وهو الذي وعد هؤلاء اليهود بجملة من التسهيلات والامتيازات التي ستعطى لهم في مقابل

المساندة العلنية للثورة الجزائرية، وذلك ما أعلن عنه في تجمع صحفي مخصص للأقلية اليهودية، وهو الذي قال فيه بأن يهود الجزائر ستكون لهم نفس الحقوق والواجبات كما لجميع الجزائريين، في حالة وقوع اختياريهم على الجنسية الجزائرية كهوية نهائية لهم، في قوله: «اليهود لهم نفس الحقوق ونفس الامتيازات والالتزامات».⁽³¹⁾

وفي ظل الجهود المبذولة من قبل قادة "جبهة.ت.و" لاستقطاب الأقلية اليهودية لصالح القضية الجزائرية أو تحييدها على الأقل، فقد تقرر وبصفة نهائية بالنسبة لهؤلاء اليهود الانضمام إلى الطرف الفرنسي في هذه المعادلة الحربية، وذلك بناء على القناعات والاختيارات التي أعلنوا عنها بصفة صريحة، من خلال ضم أصواتهم إلى صوت السلطات الاستعمارية الفرنسية في هذه القضية، ولا أدل على القرار الحاسم الذي اتخذته يهود الجزائر بخصوص تأييدهم للواقع الاستعماري وتنكرهم للقضية الجزائرية، من المشاركة الواسعة لهؤلاء اليهود في الجرائم اللإنسانية المقترفة من قبل منظمة الجيش السري الفرنسي⁽³²⁾ O،A،S، هذه الأخيرة التي راح ضحية لمخططاتها وأعمالها الإجرامية عدد كبير من الجزائريين والفرنسيين المتعاطفين مع القضية الجزائرية، سيما بعد الفشل الذي كلل به الانقلاب المدبر من قبل قادة الجيش الفرنسي من أولئك الراضين للسياسة المنتهجة من قبل الجنرال ديغول في مستعمرة الجزائر، سيما في ظل إعلان هذا الأخير لخيار الجلوس إلى طاولة المفاوضات مع ممثلي "جبهة.ت.و" الجزائرية، وبناء على ذلك فقد قرر الضباط الفرنسيون الأربعة: شال، صالان، جوهور، زيلر، في شهر أبريل 1961 إعلان القيام بانقلاب عسكري ضد العسكري المخضرم "الجنرال ديغول".⁽³³⁾

خاتمة:

وما سبق ذكره؛ نستطيع القول أن موقف الأقلية اليهودية المناوئ للثورة التحريرية وللقضية الجزائرية بصفة عامة، لم يكن موقفاً منعزلاً أو منعدم الجذور والأصول التاريخية والحضارية، بل إنه نتيجة منطقية وتراكمية للتحوّل العميق في مواقف هؤلاء اليهود من الاحتلال الفرنسي على الجزائر منذ أول يوم لوجوده بالجزائر سنة 1830 وإلى غاية استقلال البلاد سنة 1962، هؤلاء اليهود الذين خانوا الوطن الحاضر لهم، بعد أن كانوا السبب في وقوع الجزائر ضحية بين أيدي وبرائن العدوان الاستعماري الفرنسي، ومما زاد من مواقفهم الغامضة تأكيداً في ما تعلق بالمشروع الثوري التحرري، هذا الأخير الذي آلهم الحظوة والمكانة مثلهم مثل باقي الأقليات الدينية العديدة في

المجتمع الجزائري، وذلك ما قابلته الأقلية اليهودية بالتنكر وإدارة الظهر للبلد التاريخي الحاضن لهم أوقات الشدائد والمحن، وهو الموقف الذي قال فيه أحد المثقفين اليهود عبارة ظلت خالدة جاء فيها: «...إن اليهود قد اختاروا الأسوأ، بانضمامهم إلى فرنسا ضد الشعب الجزائري».⁽³⁴⁾

الهوامش:

- 1- محمد قومي: دور الطائفة اليهودية بتوات خلال القرنين 9هـ-10هـ-15م-16م، رسالة ماجستير، إ: غازي الشمري، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، الجزائر، 2014/2013، ص16.
- 2- اسعيد عليوان: دور الجالية اليهودية في استعمار فرنسا للجزائر 1830، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر (قسنطينة)، الجزائر، د.ت، ص02.
- 3- فوزي سعد الله: يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ط2، دار الأمة، الجزائر، الجزائر، 2004، ص47.
- 4- آمال معوشي: يهود الجزائر والاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1870، دار الإرشاد، الجزائر، 2013، ص09.
- 5- يطلق مصطلح المغرب الأوسط على الكيان السياسي الواقع عبر الحيز الجغرافي المتوسط للمغربين الأدنى (تونس حالياً) والأقصى (المغرب حالياً) وهو ما أصبح يطلق عليه حالياً اسم الجزائر. ينظر؛ مبارك بن محمد المليي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج02، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، ص24؛ ينظر أيضاً. يسرى عبد الرزاق الجوهري: شمال إفريقية- دراسة في الجغرافية التاريخية، دار الجامعات المصرية، مصر، د.ت، ص173.
- 6- اسعيد عليوان: المرجع السابق، ص02.
- 7- كمال بيرم، خميسي سعدي: النشاط الاجتماعي ليهود بوسعادة خلال فترة الثلاثينيات من القرن العشرين (مظاهر وأبعاد)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع14، جامعة الشهيد حمة لخضر- الوادي، الجزائر، د.ت، ص99.
- 8- آمال معوشي: المرجع السابق، ص25.
- 9- عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1997، ص85.
- 10- فوزي سعد الله: المرجع السابق، ص275.
- 11- آمال معوشي: المرجع السابق، ص-ص، 26-27.
- 12- محمد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية 1830-1954، ط3، د.د.ن، الجزائر، د.ت. ص142.
- 13- فوزي سعد الله: المرجع السابق، ص278.

- 14- أبرير حمودي: مواقف الجزائريين من القضية الفلسطينية 1945-1973، أطروحة دكتوراه، إ: علي أجقو، جامعة الحاج لخضر - باتنة، الجزائر، 2015/2014، ص 199.
- 15- فوزي سعد الله: المرجع السابق، ص 07.
- 16- وزارة الإعلام والثقافة: النصوص الأساسية لجهة التحرير الوطني (1954-1962)، الجزائر، 1979، ص 08.
- 17- وزارة الإعلام والثقافة: المصدر السابق، ص 09.
- 18- آمال معوشي: المرجع السابق، ص 296.
- 19- أبرير حمودي: المرجع السابق، ص 201.
- 20- أحمد سميح حسن إسماعيل: الاستيطان اليهودي في الجزائر 1919-1962، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص 95.
- 21- لصر الدين لعوج: الأسس الإيديولوجية والأبعاد الحضارية للثورة الجزائرية 1954-1962، أطروحة دكتوراه، إ: محمد مجاود، قسم التاريخ، جامعة الجليلي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، 2013/2012، ص 445.
- 22- لصر الدين لعوج: المرجع السابق، ص 446.
- 23- عبد المجيد الفضة: البعد الإنساني في الثورة التحريرية 1954-1962، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع14، جامعة الشهيد حمة لخضر، الجزائر، د.ت، ص 246.
- 24- حمادة البخاري: فلسفة الثورة الجزائرية، ط1، دار الغرب للنشر، الجزائر، 2005، ص 129.
- 25- عبد المجيد الفضة: المرجع السابق، ص 244.
- 26- وزارة الإعلام والثقافة: المصدر السابق، ص 09.
- 27- حمادة البخاري: المصدر السابق، 129.
- 28- وزارة الإعلام والثقافة، المصدر السابق، ص 44.
- 29- لصر الدين لعوج: المرجع السابق، ص 445.
- 30- لصر الدين لعوج: المرجع نفسه، ص 446.
- 31- أبرير حمودي: المرجع السابق، ص 202.
- 32- أبرير حمودي: المرجع نفسه، ص 214.
- 33- رايح لونيسي: منظمة الجيش السري وإرهابها في الجزائر، مجلة عصور، ع22-23، جامعة أحمد بن بلة (وهران)، الجزائر، ديسمبر 2014، ص 209.
- 34- عبد المجيد الفضة: المرجع السابق، ص 248.